كتاب السيرة

2 الكتاب الثاني

@ketab_n
15.1.2015

جورج أمادو

طفل من حقول الكاكاو

سيرة ذاتية للطفولة

ترجمة : محمد صوف

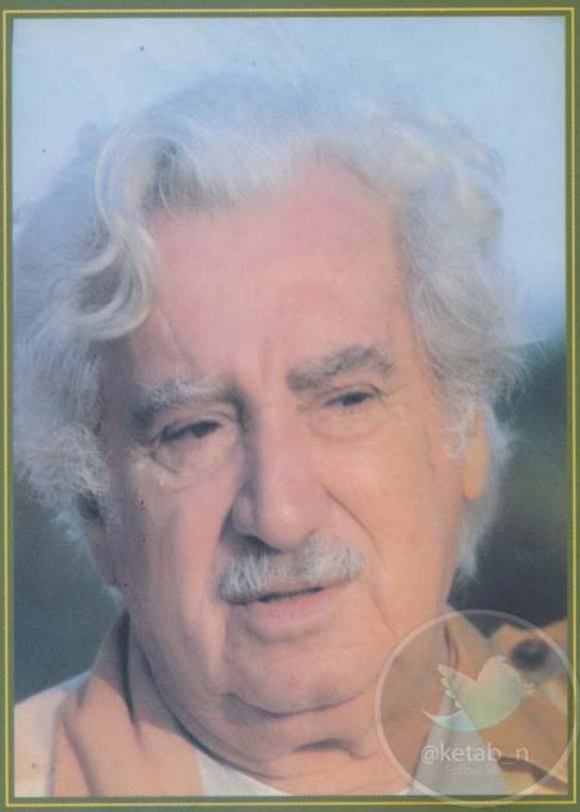

أزمنة

جورج أمادو

طفل من حقول الكاكاو

سيرة ذاتية للطفولة

ترجمة : محمد صوف

Twitter: @ketab_n

طفل من حقول الكاكاو

Twitter: @ketab_n

☐ الكتاب: طفل من حقول الكاكاو، سيرة ذاتية للطفولة
☐ الكاتب : جورج أمادو
☐ المترجم : محمد صوف
☐ الطبعة الأولى : 2004
☐ جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق ©
أزمنة ®
أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤
ص.ب : ٩٥٠٢٥٢
عمّان ١١١٩٥ الأردن
شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤
E.mail:Elias@Farkouh.Net

رقم الإجازة المتسلسل ٢٠٠٤/٥/١١٢١

All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in all retrieval system or trasmitted in any form or by any mean without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

☐ تصميم الغلاف : أزمنة (الياس فركوح) .
☐ فرز وسحب الأفلام : الشروق.
☐ الترتيب والإخراج الداخلي : أزمنة (إحسان الناطور).
☐ تاريخ الصدور : حزيران 2004.

Twitter: @ketab_n

مقدّمة المترجم

الكاتب أولاً

ولد جورج أمادو سنة ١٩١٢ بفيراداس بالبرازيل بإحدى مزارع الكاكاو بسرجيب جنوب باهيا. ولد إذن بأرض طبعها العنف والاقتتال من أجل المزارع .

في سن العاشرة يدخل أمادو إلى مدرسة اليسوعيين. لكنه سيفر منها بعد ثلاث سنوات ، ليعمل في إحدى الجرائد قبل أن يدرس القانون بريو دي جانيرو .

في سنة ١٩٣١ يصل الدكتاتور جيتوليو فارغاس إلى السلطة . وفي هذه السنة سيكتب جورج أمادو روايته الأولى وسنه ١٩سنة . الرواية تحمل عنوان «بلد الاحتفالات» التي ظل يرفض حتى التسعينات أن تُترجم، إذ اعتبرها رواية ساذجة .

في نفس سنة ١٩٣١ يلتحق الكاتب بالحزب الشيوعي البرازيلي ، وكان ممنوعاً آنذاك بالبرازيل . كانت تلك بداية تجوال الكاتب القسري من بلد إلى آخر ومن سجن إلى آخر؛ إذ سيعتقل ١٢ مرة وستحرق كتبه، وما لم يحرق منها تم منعه .

نفى نفسه سنة ١٩٤١ إلى الأرجنتين وعاد إلى باهيا سنة ١٩٤٣ عندما انضمت البرازيل إلى الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية . وفي سنة ١٩٤٥ انتخب نائباً برلمانياً عن الحزب الشيوعي. إلا أن سنة ١٩٤٨

Twitter: @ketab_n

ستعرف منع الحزب الشيوعي البرازيلي، وسينفى جورج أمادو إلى فرنسا، ثم سيطرد من فرنسا ويُمنع من الدخول إليها لمدة ١٦ سنة. يصبح أمادو بعد هذا الطرد مناضلاً متجولاً متنقلاً من جمهورية ديموقراطية شعبية إلى أخرى خلال الحرب الباردة . وسيحوز على جائزة ستالين ثم يعود إلى البرازيل .

منذ البدء كان أمادو ملتزماً. و منذ البدء وصف بؤس وآلام المعذبين في الأرض في البرازيل في رواية « الكاكاو.. العرق». إلا أنه ابتداء من روايته الذائعة الصيت «باهيا مدينة كل القديسين» سنة ١٩٣٥ و «البحر الميت» سنة ١٩٣٦، دخل النفس الملحمي أعماله دون أن يتخلى عن التزامه، لكنه تخلّى شيئاً فشيئاً عن الشيوعية الرومانسية التي طبعت كتاباته في شبابه .

في سنة ١٩٥٤سيعتزل الحزب الشيوعي ليصبح، حسب تصريح له، «الطبيب المضاد بامتياز، والعالم المضاد، والدخيل على عالم الأدب، والغريب في متاهات الانتليجانسيا».

وقد حصل هذا الأديب على عدد هائل من الجوائز ما عدا جائزة نوبل للآداب، ولعل فوزه بجائزة ستالين كان السبب في إعراض لجنة نوبل عنه. إنه أشهر روائي في بلده. ترجمت أعماله إلى أكثر من أربعين لغة.

وتجدر الإشارة إلى أن عيد ميلاده الثمانين عرف تجمعاً جماهيرياً منقطع النظير في ساحة بيلورينو بباهيا .

عندما صدرت رواية «باهيا مدينة القديسين» كتب عنها ألبير كامو بعدد ٩ أبريل ١٩٣٩ من جريدة « الجير ريبوبليكان«Alger Républicain» قائلاً :

Twitter: @ketab_n

«كتاب رائع ومذهل. إذا كانت الرواية قبل شيء حركة فإن هذه الرواية تمثل المثال في هذا النوع من الروايات . بوضوح نقرا فيها خصب الوحشية الممارسة عن سبق إصرار و ترصد .»

ويقول أيضاً :

«كلمة أخيرة. كان سن جورج أمادو ٢٣ عاماً عندما أصدر هذه الرواية. وقد طرد من البرازيل لأنه عاش الرواية قبل أن يكتبها».

كتب جورج أمادو «طفل من حقول الكاكاو» سنة ١٩٨٦، وهو المؤلَف رقم ٢٥ ضمن أعماله التي يبلغ عددها ٣١ عملاً . والكتاب عبارة عن مذكرات طفولته التي رفض بعدها رفضا قاطعا أن يضيف إلى هذه المذكرات، وقال في هذا الصدد :

«إذا كتبت مذكراتي سأفقد أصدقائي لبقية عمري . لديّ أصدقاء لا يفكرون بطريقتي، والأمر نفسه في الأدب. هناك كتب أحبها وهناك كتب أنا معجب بها . يمكن أن أعجب بكتاب ولا أحبه، ويحدث أن أحب صديقاً دون أن أشاطره طريقة تفكيره ».

و يقول عن نفسه :

«لقد ناضلت من أجل القضايا العادلة . قضايا الناس وقضايا العظمة. قضايا الخبز والحرية. قاومت الأفكار الجاهزة وتجرات على ممارسات مرفوضة وجبت السبل المحظورة . كنت الضد. كنت اللا . أهدرت نفسي. بكيت. ضحكت. تألمت. أحببت. وتسليت» .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

من كثرة ما سمعت والدتي تقص علي ذاك المشهد أصبح واقعاً حياً وكأنه نقش في ذاكرتي .

سقطت الفرس ميتة وحملني والدي من على الأرض وهو غارق في الدماء . كان عمري آنذاك عشرة شهور . كنت أحبو في الڤيراندا .

عند غروب الشمس، نزلت ظلال الليل الأولى وعبرت أشجار الكاكاو التي تم غرسها منذ مدة قريبة وعلى الغابة العذراء العتيقة المتوحشة .

كان والدي يقلب الأرض . بنى بيتاً على الجانب الآخر من فيراداس . وفيراداس حي يملكه المحافظ الشاب لبلدة إيتابونا . وزرع الكاكاو . والكاكاو ثروة عالمية في عصر الصراعات الكبرى .

كان الصراع من أجل الخشب ومن أجل أرض لا يملكها أحد يمتد و يمتد، حتى نصب الكمائن، وحتى الصراعات السياسية والمواجهة بين رجال مسلحين في جنوب ولاية باهيا . كانوا يتاجرون بالحيوانات والسلاح وحياة الناس . كانت اليد العاملة تتوافد على المنطقة بحثاً عن المال حيث كان المطر يهطل عليها فتنجو من الجفاف الذي ضرب مناطق شمال شرق البلاد، ومن

Twitter: @ketab_n

الفقر المدقع، ومن غياب فرص الشغل في سرجيب .

وحدهم من يتوفرون على مناجل جيدة ورفوش، وكذا من يحسنون الرماية، كانوا يتقاضون أجوراً مرتفعة ويحظون بعدد من الامتيازات . وكانت الصلبان تحجوب سبل المنطقة، والجثث تساهم في سمنة الذئاب .

كان والدي يقطع قصب السكر لفرسه . مطيته المفضلة . خلف شجرة ، على أحد الأغصان اتكأت البندقية (هكذا أرى المشهد بالضبط) . . أنتظرَ القاتلُ اللحظة المواتية ليفرغ بندقيته . ما الذي أنقذ المحكوم عليه بالإعدام لحظتها ؟ حركة مباغتة منه أو من الفرس، وتلقى الحيوان الرصاصة القاتلة بينما استقرت شظايا الرصاص بين كتفي الكولونيل جواو آمادو دي فاريا . لن يستطيع نزعها أبداً . كانت رؤيتها ممكنة خلف الجلد حتى نهاية حياته . كان يواريها بنوع من الامتعاض وبكثير من الكبرياء ليؤثث الحكاية التي لا تتوقف والدتي عن سردها .

توصل الجريح إلى حمل ابنه إلى المطبخ حيث كانت السيدة أولاليا تعد الأكل . سلّمها الطفل ملطخاً بدماء والده . حدث ذلك سنة ١٩١٣ .

ولدت سنة ١٩١٢ في ضيعة الكاكاو المسماة آوريسيدا . كان والدي قد غادر مدينة إيستانيا منذ مراهقته . كانت إيستانيا مدينة متحضرة تعيش فترات تدهور جلي . ذهب والدي ليغامر في تقليب الأرض بجنوب باهيا، وليزرع مع آخرين ساهموا في

Twitter: @ketab_n

ملحمة الكاكاو الطويلة، وأسسوا حضارته، ثم كوّنوا فيه جنس الغرابيونا . على بعد كيلومترات من فيراداس وعلى حدود إلهوس وإيتابونا حيث توجد اليوم جامعة تضم آلاف الطلبة في ذلك الوقت، كانت والدتي تضع البندقية تحت الوسادة وتنام .

Twitter: @ketab_n

2

هل توجد فعلاً ذكريات تربض في عدسة عين الطفل كالمياه التي تكبر . . تكبر . . وتغمر الأراضي والنباتات وتجرف الحيوانات وتعيد الغابة إلى غموضها الجائر؟ أم أن ذلك مصدره الحكايات التي تُروى له ؟

جرف فيضان نهر كاتشويرا في بداية سنة ١٩١٤ النباتات والبيت وحظيرة الخنازير والبقرة والحمير والماعز . هرب والداي إلى القرية، ولم يكونا يحملان سوى ما عليهما من ثياب، وطفلاً.

وفي فيراداس ضاق المكان باللاجئين، فأرسلونا إلى مكان كان مخصصاً لعزل المصابين بالجذام والجذري، ثم حولوه إلى ملجأ لضحايا الفيضانات .

Twitter: @ketab_n

3

حكت والدتي أنهم غسلوا البلاط الإسمنتي ببعض الماء. لم يكن ثمة أي مصدر للعون والمساعدة . لا أدوية . لا ممرضات. لا أطباء .

كانت الأراضي تقع في نهاية العالم . .

من يدري؟ لعل هذه التجربة التي عشتها في طفولتي حصّنتني ضد الجدري إلى اليوم . لم تؤثر عليّ قط أية حقنة ضد الجدري من تلك التي غرسوها في جلدي لسنوات . حتى الحقنة الأولى لم يكن لها أي تأثير عليّ . مع أن الحقن كان اكتشافاً في المنطقة سنة ١٩١٨ . قبل ذلك كانوا يشجون الجلد بسكين. كانت ماريا الخادمة الصغيرة تعاني من بثور عبر جسدها. وكان الجميع يعانون من الحمى ويتألمون منتفخي الذراع . أما أنا فقد كنت أتسلق الأشجار دون خوف وأركض على الشاطئ . كان الجدري جزءاً من دمي .

في ذلك الوقت كان الجدري الأسود يقرض سكان منطقة الكاكاو . الجدري. حمّى المستنقعات. الحمّى. . . أي حمّى ؟ لست أدري . كانوا فقط يرددون لفظ الحمّى عندما يتحدثون عن مرض قاتل. هل كانت حمّى التيفوس؟ إنها تقتل حتى القرود . هكذا كانوا يرددون في إشارة إلى خطورة وبأس هذا المرض

Twitter: @ketab_n

القاتل . . يقولون ببساطة : « الحُمّى » .

وعند تهاطل الأمطار تتحول الحمّى إلى وباء . تتوقف عن كونها حمّى لتصبح طاعوناً . كانت تأتي من أعماق الغابات مقتفية آثار الحيات و الثعابين .

وكانت الحمّى تكتفي بأن تقتل عدداً من الناس . والطاعون يزرع المآتم في القرى . لم يكن ثمة دواء شاف . ولم يكن ثمة طبيب يستطيع مواجهة الجدري الأسود . والجدري الأسود مُعْدٍ بشكل يتحدى أي مرض آخر . وكان ضحاياه يعزلون في ملاجئ خاصة بعيداً عن المجمعات السكنية . وإذا حدثت معجزة وشفي مصاب بالجدري فإنه يحمل آثار المرض على يديه ووجهه . إنها صورة الموت تلك التي رأيت في طفولتي ولا زالت تعتريني منها رعشة حتى اليوم . المصابون بالجدري يُحشرون داخل أكياس من القنب ويُحملون إلى الملاجئ من طرف الناجين . أي من طرف أولئك الذين أصيبوا بالجدري ثم شفوا فكانوا بذلك محصنين ضد العدوى .

وأنا أسير جنباً لجنب مع الموت ضمن مجموعة قليلة من الأقارب ، رافقت من بعيد عملية نقل زميل لي في المدرسة إلى أن اختفى الشخص الذي كان يحمله على ظهره داخل كيس . ابتلعته طريق تقع على حدود المدينة . إن الجدري والمصابين بالجدري يسكنون كتبي ويرافقونني في حياتي .

Twitter: @ketab_n

4

على شاطئ بونتال الجميل يركب الطفل غصناً من الكاكاو الأخضر. يقفز في الهواء. يحلّق فوق الميناء والسفن ويعيش بين الواقع و الخيال على متن جواده الخيالي. يحمل فتاة أحلامه النجمة الساطعة بنت الجيران. ومن نظرة رفيقته وابتسامتها يتلقى أول درس في الحب. تمارس عليه الصغيرة سحراً جباراً. لعوب. متبرجة. تثيره، تهرب. تعود. الوالد صاحب قارب يقضي اليوم على مركبه يحمل الناس والبضائع من هذه الضفة إلى تلك. من حي بونتال الهامشي الفقير إلى مدينة إليوس الغنية. على امتداد الجسر تتحول المراكب الصغيرة التابعة لشركة باهيا إلى عابرات للمحيط، وإلى سفن قراصنة تحمل الطفل على متنها إلى آخر العالم، حيث يحارب وينتصر على وحش البحار وينقذ الأميرة الأسيرة.

والوالدان أصابهما الإفلاس وضاعت منهما الأراضي ومزارع الكاكاو وأصبحا يقطعان الجلد لصناعة الأحذية. والمسكن الفقير يُستعمل بيتاً وورشةً في ذات الوقت. لكن الطفل يعيش على الشاطئ حيث يلتقي بالنهر بالبحر بالأمواج العاتية بالمياه العذبة بالنخيل بالريح وبالفتاة التي ينبض لها قلبه. ماذا كان اسمها ؟ لقد أضاعه. لم تبق في الذاكرة سوى صورتها

Twitter: @ketab_n

ممزوجة بحكايا فتيات الأحلام والقراصنة في أصلها الذي ترويه أولاليا. لم يبق من حبيبته سوى كبرياء الوجه الأسمر والشعر الناعم لهندية مختلطة . . حبيبته . . هل يحب الإنسان في تلك السن ؟

الوالد يخدم الأرض . يزرع الكاكاو ويقطع الجلد . يصنع الأحذية إلاّ أنّ هدفه واحد لا يتغير . أن يقتصد ليعود من جديد إلى اقتحام الغابات المتوحشة وفتح الطرق وزرع الكاكاو . . إنه زمن الشاطئ والريح والمراكب والأغاني في الليالي المقمرة، بعيداً عن القبور الجاثمة في ملقيات الطرق، وعن دوي البنادق الذي يمزق الليل .

لن تتأخر عودة الطفل إلى المزرعة . لا في فراداس بل في تارانغا في ضواحي اسبينيو، حيث الأوحال وأقدام الرجال وحوافر البغال المحملة بأكياس الكاكاو تعطي الميلاد لحي أطلق عليه بيرانجي، وهو اليوم مدينة شمس إيتاجويب . . إنه زمن تتناسل فيه المدن .

Twitter: @ketab_n

5

جعلتني بعض فصول القواميس والموسوعات وبعض فصول السير أولد من جديد في بيرانجي . وما حدث في الحقيقة هو العكس . فقد رأيت بيرانجي تولد وتترعرع عندما مررت من هناك .

لما رأيتها لأول مرة كنت على ظهر جواد والدي ولم يكن فيها سوى ثلاثة منازل متفرقة . كانت السكة الحديدية بعيدة في بيكرو دو إسبينيو .

بعد ذلك أصبحت زقاقاً طويلاً تمتزج فيه البيوت بمخازن الكاكاو بالحانة، وفي أقصى الزقاق ثمة دور للقمار . وثمة أيضاً أزقة صغيرة تأوي الفنادق وبنات الليل . كان المغامرون يأتون من كل حدب وصوب، والباعة يفرغون أكياس البضائع ويؤسسون المتاجر والمخازن . . وكان هناك أيضاً راهب يتحدث بلكنة ألمانية ويسعى إلى فرض وصايا القانون الإلهي على أشخاص لا إيمان لهم ولا يعترفون بأي قانون . يتمردون على كل نظام ويعادون السلطة، سواء كانت سلطة السماء أم سلطة الأرض .

وأصبح الحي البئيس حافلاً بالحركة وأصبح الكسب فيه سريعاً وسهلاً . كانت الطلقات النارية تسمع في الأزقة وفي بيوت الدعارة، كما أن حياة الإنسان كانت زهيدة الثمن . لم

Twitter: @ketab_n

تكن تساوي أكثر من ابتسامة امرأة أو قطعة أرض أو جولة قمار . وكبرت في وقت واحد أنا و بيرانجي . شاهدت افتتاح أول متجر ، ورأيت أول عربة تسير بمحرك وتنقل المسافرين من بيكر وإلى إيسبينيو . وهناك تعرفت على أشخاص أفذاذ ، وهناك راودتني أحلام طفل تهدهده النساء في الأزقة الضيقة المعتمة .

Twitter: @ketab_n

6

في الذاكرة يكمن مشهد لم أسمع عنه وإنما عشته كاملاً في ليلة دافئة ومرعبة من ليالي تارارانغا.

كم كان عمر الطفل آنذاك ؟ خمس سنوات ؟ ربما . لا أذكر.

من الصعب قياس زمن الطفولة الأولى . المؤكد أني كنت صغيراً جداً . أيقظني نباح الكلاب وقد انضاف إليه ضجيج آخر في ساحة البيت . خرجت لأرى ما يحدث .

ماذا فعلت لأختبئ في الفيراندا دون أن يراني أحد ؟ لا أذكر .

ومع ذلك أذكر بوضوح مشهداً مثيراً . كان الظلام وعبره تتحرك أشكال وظلال ومنه تنبعث أصوات وصهيل . كان والدي يمتطي فرسه الأسود .

كان دائماً يؤكد أنها أفضل من أي حصان . وكان رجاله يمتطون البغال؛ فالجياد لا تصلح لتلك الأزقة الموحلة والمليئة بالحفر والنتوءات . الجياد تليق بالاستعراضات التي يقيمها الكولونيلات عبر شوارع إيليوس وإيتابونا مرصعة بالفضة .

على السروج تكمن البنادق .

كان قائد هؤلاء هو الرقيب أرجميرو . كان أشقر . لقد خدم

Twitter: @ketab_n

والدي منذ فراداس . وها هو في خدمته الآن في تارارانغا ومسدسه في حزامه . بجانبه مقاتل هندي تبدو عليه آثار الجدري . كانت عيناه مشتعلتين . وهو أحد كبار المُلاّك ورجل سياسة . اسمه برازيلينو دوس سانتوس . . والعرّاب براس . وهو أحد الوجوه التي كانت تفتنني في طفولتي . كان عرّاب وصديق الكولونيل جواو آمادو . لم يفارقه قط في الأوقات العصيبة . من المستحيل أن تجد في منطقة الكاكاو شجاعة وبسالة كالتي يتصف بها هذا الرجل . هذا ما كان يشاع عنه . وكانت الحقيقة أيضاً . رأيته بعد ذلك بسنوات يواجه بمفرده عصابة أرسلها إليه خصومه السياسيون لإثارة البلبلة والشغب في بيرانجي . غادر المائدة التي كنا نأكل عليها . أخرج مسدسه . كان وجوده وحده كفيلاً بوضع حد لعمليات الاستفزاز وهروب المعتدين . كان الساعد الأيمن لبازيليو دي أوليفيرا في حروبه من أجل الحصول على الأرض .

ذهبت مجموعة من الرجال المسلحين كانت تبدو لي جيشاً . وأمي ، تلك المرأة الرقيقة الراضخة ، رأت زوجها مرة أخرى يأخذ اتجاه إيتابونا مع أصدقائه و رجاله من أجل حماية الحملة الانتخابية لقريب له .

وقد نجح القريب في الانتخابات بجرة قلم تحت حراسة الرجال المسلحين . وعند ما اختفى الفرسان اكتشفت الأم الطفل وهو يرقب العملية ، فأخذته بين ذراعيها واحتضنته . كانت

Twitter: @ketab_n

مخلصة لاخوتها وقد كانوا بدورهم كولونيلات الكاكاو . وكان خالي فورتوناتو شخصاً غريب الأطوار . أعطى الكثير للحصول على اللقب والأراضي . فقد عيناً في المعارك ولم يبق في إحدى يديه سوى إصبعين . قلت كانت والدتي وفية أيضاً لزوجها . صامتة . وفعالة . لم تشك قط . كانت تكره هذا العالم المتوحش الذي تنتمي إليه . ابتلع الظلام الحيوانات والرجال . وفي الفيراندا لم يبقَ مع السيدة أولاليا سوى الطفل والموت .

الموت صديق طفولتي من بدايتها إلى نهايتها .

Twitter: @ketab_n

7

تتصدر أعمالي الروائية موضوعتا الحب والموت . وهي ملاحظة أوردها إيليا إيهنبورغ في مقدمة الطبعة الروسية لرواية «بقاع في أقصى العالم» . . وكررها عدد من النقاد . تجد تبريرها وجذورها في طفولتي الأولى . طفولة شكلتها أراضي اغتصبت، ورجال مدججون دوماً بالأسلحة في عالم بدائي حيث تسود الأوبئة و الطاعون والأفاعي والدم والصليب على امتداد الطرقات، وهو أيضاً عالم البحر ونسائمه والشطئان والأنغام والجميلات . بين بونتال وبيرانجي أحسست بالحب ولامست الموت . كانت حياة الطفل كثيفة و دافئة .

وضع أرجميرو الطفل أمامه على السرج وأخذه إلى بيرانجي خلال أيام المعارض . احتفال وبهرجة وبين أكياس الجلبان والدقيق وقطع اللحم المجفف وفواكه الجاكاس والكوز وجذور الإينيام والمانيوك ووسط الناس . وسط رجال ونساء يحملون لون الأرض كان الطفل يعي وجود هذه الأشياء شيئاً فشيئاً . لم يكن هناك ما يحبه مثلما يحب التنقل إلى بيرانجي مع العمال ورجال الحراسة . لقد جعلوا عالمه رحباً ، وحالوا دونه وأي نوع من الأفكار الجاهزة .

كان شديد الإعجاب بآرجميرو الذي يهابه الكل ،

Twitter: @ketab_n

وهونوريو ذلك الأسود العملاق الذي يجدد حضوره في رواياتي انطلاقاً من الكاكاو . أمامه كانوا كلهم يرتجفون. كان يروّج أنه قتل الكثيرين، و أستطيع أن أؤكد أن طيبوبته لا حدود لها ولطفه ليس له مثيل .

وكان على الطفل أن ينتظر بضع سنوات ليتعرف على كواليس الحانة وعالمها، حيث يغامر الكولونيلات والتجار العرب بأموالهم وحياتهم في البوكر . لم يكن سنه يسمح له بأخذ الورق و تعلم قواعد الخداع ، لكنه منذ صباه الأول اعتاد الدخول إلى بيوت الهوى . فقد كان أرجميرو و هونوريو لا يغادران بيرانجي إلا بعد سهرات مع الفتيات في الأزقة الضائعة .

كان الطفل ينتظرهما ، وفي تلك اللحظة تتناقله الأيادي وتتداوله المداعبات ويتلقى الحنان من فتاة إلى أخرى . لا زلت أذكر لاورا بوجهها الهزيل وكيف كانت تقص عليّ حكايات الذئب غارو وتغني لي أغنيات ما قبل النوم .

Twitter: @ketab_n

8

قال آرجميرو :

«لا تقل للسيدو اولاليا أو للكولونيل إننا كنا هنا . »

ثم قال هونوريو مستعطفاً :

«إذا علم الوالدان ذلك ستنهار الدنيا علينا . »

كيف أقص ذلك إذن !!! لقد شكل سر الكبار مصدر فخر للطفل . لم يستطع أن يخون السر ولا أن يجازف بالحنان والعطف اللذين يلقاهما من النساء . كان ذلك بالنسبة له كنزاً لا ينبغي التفريط به .

في طفولتي وصباي كانت بيوت نساء الهوى في الحواري والقرى و أزقة باهيا تعني الكثير من الدفء والحنان والمرح . هناك كبرت بشكل من الأشكال . هناك تعلمت وثمة جزء بالغ الأهمية من جامعاتي .

لم يكن البيت يمثّل مبغى . إنها كلمة لا يحق لنا أن نطلقها على أماكن حافلة بالألفة والبساطة ، حيث لمست حدود البؤس ولمست القيمة الإنسانية في أقصى تجلياتها .

في المزرعة ، وقت الاستحمام، كانت ماروكاس الفتاة العانس المخلصة والتي تعاني من حرمان كبير تتأمل عضو الطفل . تقترب منه بوجهها وتتنهد . كانت أول من لمس الطفل .

Twitter: @ketab_n

وفي بيوت النساء كان آرجميرو أو هونوريو يدع الطفل في حراسة إحداهن . لم يبد قط من إحداهن أي سلوك خال من الحنان و الأمومة .

نساء ضائعات . هكذا كن يوصفن . بقايا آدمية . بالنسبة لي ومنذ البدء كن عطوفات ، ثم صديقات ، ثم عاشقات حافلات بالخجل واللوعة . كن يهدهدن أحلامي ويحمين تطلعاتي المتمردة ، وكن يمنحنني ما أحتاجه لمقاومة الألم والوحدة . كن محرومات من كل الحقوق ، ترفضهن كل المجتمعات ، تطاردهن ، تخدعهن ، تحط من قيمتهن ؛ ومع ذلك كن يفضن حناناً ويتوفرن على طاقة من الحب لا تنضب .

ماذا كنت سأصبح لو لم أكن روائياً للبغايا و المتشردين ؟

إذا كان في ما أكتبه مسحة من جمال فمصدره هؤلاء المحرومين وتلك النساء اللائي يحملن علامة الحديد الأحمر ، واللائي كن على حافة الهلاك في أقصى درجات الإهمال .

في الأدب وفي الحياة أشعر بي دائماً أبعد عن القادة وعن الأبطال ، أقرب إلى أولئك الذين ترفضهم وتحاكمهم الأنظمة والمجتمعات .

Twitter: @ketab_n

9

إن القادة والأبطال فارغون . بلداء . مستبدون . غير محبوبين و أشرار . يكذبون حين يدّعون أنهم يتكلمون باسم الشعب، لأن الراية التي يحملون هي راية الموت .

من أجل بقائهم يمارسون القمع و العنف . وكيفما كان موقعهم، في أي نظام أو أي مجتمع، فإنهم يطالبون بالطاعة وعبادة الشخصية . لا يستطيعون أن يتحملوا الحرية ولا الإبداع ولا الحلم . إن الفرد يرعبهم . يضعون أنفسهم فوق الشعب ويشيدون عالماً حزيناً رديئاً . لقد كانوا دائماً هكذا . فمن يستطيع أن يميز البطل من القاتل والقائد من الطاغية ؟

تولد الإنسانية من الذين لا يملكون جاذبية خاصة، ومن الذين لا يملكون ذرة نفوذ . هل سنعجب بنابليون أو نحبه إذا نحن تذكرنا باستور وشابلن؟!

Twitter: @ketab_n

10

أما المتشردون فقد مثّلوا بدورهم جزءاً من حياتي اليومية ومن عالمي . بدأت معاشرتهم و أنا في سن الثالثة عشرة . كنت قد هربت من المدرسة الداخلية لدى الرهبان وعبرت البيرتاو نحو سرجيب حيث يوجد بيت جدي . ثم أصبحت صديقاً لعدد كبير منهم خلال مراهقتي في مدينتي سالفادور وباهيا

كنت صديقاً للمتشردين إذن وللبحارة ، لعمال المعارض ، لراقصي الكابويرا ، للباعة و للمهرجين . . بل كنت أكثر من ذلك : كنت واحداً منهم .

في منطقة غرابيونا لم يكن ثمة مكان للمتسكعين ، وكان العمل شاقاً والصراع على أشده . عرفت وعاشرت مغامرين من كل الأصناف . كانوا يأتون إلى حقول الكاكاو بحثاً عن المال السهل . وكانوا يضفون على أنفسهم كثيراً من الصفات ليتمكنوا من خداع الكولونيلات السذج . . إلا أن الكولونيلات لم يكونوا سذجاً . كانوا يمسكون أوراق البوكر كما المسدسات والبنادق . كثير من هؤلاء المغامرين لقوا حتفهم في ملاهي إيلهوس ، وإيتابونا ، وفي بيوت القمار بآغوا بريتا وبيرانجي . . وآخرون استطاعوا أن يتأقلموا مع عادات المنطقة فسكنوها وأسسوا فيها مزارعهم . .

Twitter: @ketab_n

بين المحاربين والمغامرين والمقامرين كبر الصبي وتعلم القراءة قبل أن يذهب إلى المدرسة وعلى صفحات جريدة «المساء» عند ما كان في بونتال . تعلم قواعد البوكر عندما كان يجلس خلف عمه آلفارو أمادو بفندق كويلو ويتابع اللعب والمزايدات . كان يخمن لعب كل واحد . وكان خداع الآخر قاعدة من قواعد اللعبة . في القرية كانوا يلعبون ثلاثي إيتابونا، والثنائي والأول أو الملك، ثم ثلاثي بيرانجي المكون من ثلاث ورقات متتالية ومن لون واحد . إلا أن الكسب كان صعباً في المزايدات الخطيرة . إذا أردت أن تخادع الكولونيلات الأغنياء فعليك أن تكون داهية من طراز خاص .

بالنسبة لعمي آلفارو لم يكن هناك شعور يعادل شعوره بالسعادة عند ما يفوز دون أن يلعب وعندما يتمكن من خداع شركائه . نادراً ما كان ذلك يحدث . وعندما يحدث فتلك قمة النشوة لديه .

قضيت أمسيات بكاملها أتتبع اللعب . وحتى اليوم لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يقم أحد من هؤلاء الرجال بطرد ذلك الطفل الفضولي والمشاغب الذي كان مفتوناً باللعبة . كان العم آلفارو يربت على رأسي ويغمز بعينه .

Twitter: @ketab_n

11

إن شخصيات الرواية مصدرها تلك الشخصيات الحقيقية التي تطبع الكاتب وتشكل جزءاً من تجربته الذاتية . وهذا شأن كولونيلات حقول الكاكاو في رواياتي التي تدور أحداثها في غرابيونا، والتي حاولت أن أعيد فيها خلق ملحمة غزو الأراضي ومراحل تشييد ثقافة خاصة . وفي كل هؤلاء الرجال شيء من عمي آلفارو آمادو . كان يتمتع بجاذبية خاصة . كنت دائماً تحت حمايته، وكان يعاملني كصديق وأحياناً كشريك .

هو الأخ الأصغر لوالدي . لذا كان يقتدي به . في مراهقته جاء إلى سرجيب ليكون مزارعاً ورجل سلاح . فكان يزارع ويتاجر ويبدع الصفقات المختلفة . كان دائم الضحك والابتهاج . من كل المهن التي كان يمارسها كان يفضّل القمار حيث قضى معظم أوقاته . كان يقضي أياماً و ليالي وأوراق اللعب في يده . يداعب الحظ وينتظر اللحظة المواتية لإنزال ضربته القاضية . كنت معجباً به لدرجة التعصب .

كان لطيف المعشر ، وكان أمرح من عرفت على الإطلاق . لا يعاشر الحزن قط . وحيثما يحل تحل معه البهجة والسرور . وكانت له عاداته وأخلاقه تمليها ظروف الحياة في منطقة وعرة كتلك التي كان يعيش فيها . كان داهية . يؤمن

Twitter: @ketab_n

بالدهاء شعاراً في الحياة . وكان سريع الكسب وسريع التبذير . لذلك كان دائماً يعيش في ضيق ومع ذلك ظل كريماً ولو على حساب الآخرين أحياناً .

كان يفتخر بحظه في القمار وبفوزه في اليانصيب على الأقل مرة في الأسبوع . لكنه كان يؤمن بأن الإنسان يجب أن يساعد حظه . لم أعرف قط شخصاً يعثر على النقود في الطريق مثله . كان يمشي وعيناه على الأرض . وكان متعوداً على الذهاب إلى الاجتماعات والحفلات خلال فصل الشتاء، فيحمل معه مظلة كبيرة يضعها عند المدخل قرب المظلات الأخرى، وحين يخرج يختار أجمل وأحدث مظلة .

كانت حكايات حيله تبهرني . الحيل . ذاك كان اللفظ المفضل عند السيدة أولاليا لوصف ما يقوم به أخو زوجها من ممارسات ليست كلها مصدر فخر .

وكنت أفخر بمساهمتي في بعض هذه الممارسات .

Twitter: @ketab_n

12

من الحكايات التي لا زالت راسخة في ذهني وبطلها عمي آلفارو، تلك التي ساهمت أنا في نجاحها . من يدري، قد أستفيد يوماً ما من هذه الحكاية في قصة قصيرة . مع أني أعتقد أن شخصية عمي آلفارو أكبر من قصة قصيرة . ولعل الحجم الذي يليق بها هو الرواية .

حدث ذلك عندما كان عمري ست أو سبع سنوات . كنا قد انتقلنا إلى إليوس وأقام عمي قرب بيتنا جوار فندق كويلو ، قرب الساحة الرئيسية بالمدينة . تجارة ناجحة في الماء المقدس الآتي من سيرجيب .

اكتشف هذا الماء منذ مدة قليلة في مدينة صغيرة بالبلد المجاور . على أراضٍ متاخمة للقديسة أو . وهي قديسة الخوارق . مصدر الماء عين تنبع من إحدى المغارات . استجابت القديسة لصلوات أم طفل مريض فباركت الماء وأوحت للمرأة بوجود المغارة و العين . وحسب رواية صاحب الأرض، ما إن شرب الطفل من العين حتى شفي تماماً . فتداول الناس النبأ وتلت هذه المعجزة معجزات أخرى وأصبحت المغارة محجاً وأصبح كأس من الماء المقدس يساوي مائة ريال .

أصبح النبأ يروى معللاً بحكايات حقيقية، وانتقل إلى قرية

Twitter: @ketab_n

الكاكاو . وتسارع الناس إلى المغارة بحثاً عن العلاج ليعودوا إلى قراهم معافين من أمراض كانت توصف بأنها عصية عل كل علاج . كان يكفي أن يشربوا من ماء المغارة لأيام وأن يتلوا الصلوات . هكذا تكاثر عدد الزوار . كان من بينهم العم آلفارو الذي كان يشكو من داء في المفاصل . زار العين وزار جدي في إيتابورانغا .

عاد مشافى من دائه ، فتحمس لقدرات هذا الماء الخارقة في علاج الأمراض . الماء يتحدث عنه الجميع . نعم ، لا يوجد مرض يقاوم قدرات الماء الذي باركته سيدتنا . لم يكتف عمي بالحديث عن الماء بإجلال . لم يكتف بتقديم القرابين للسيدة . بل فكر في أن يمتد مفعول الماء إلى سيرجيب . فذهب عبر الباخرة وجاء بالماء المقدس في إنائي بنزين ملأهما من العين المقدسة ، وحمل معه تمثالاً صغيراً للقديسة سيدتنا أو ؛ إذ كانت تجارة التماثيل قد ازدهرت قبل المغارة . وبدأ العم يتاجر في الماء . يعبئه في قنينات ويبيعه . لم يكن يريد الربح ، بل نشر بركة الماء ليستفيد الجميع من تجربته .

حاول الكولونيل جواو آمادو منعه من ممارسة هذه التجارة . أعطاه دروساً في الأخلاق لكن من كان يستطيع مقاومة قدرة العم آلفارو على الإقناع ؟ كان يقول إن بركة الماء ستستمر شريطة أن لا تنتظر حتى فراغ الإناء من الماء لجلب آخر . وما إن يصل الإناء إلى النصف حتى يمزجه بالماء العادي . وتبقى بركة سيدتنا

Twitter: @ketab_n

في النصف الآخر . ولا شيء من قدراتها يضيع .

كنت أساعده في هذه المهمة المربحة . كنت أبيع أواني البنزين و تماثيل القديسة . وكنت أملأ القنينات لبنات المرضى اللائي كن يتدافعن لمثلها . وازدادت حاجة الناس إلى الماء . وعند ما خف الإقبال في إيليوس، حمل عمي الأواني إلى إيتابونا حيث انهال طلب المرضى على الماء المبارك .

كان العم آلفارو يرد على انتقادات أخيه وزوجة أخيه ويعدد فوائد الماء وخوارقه . كان الناس يشفون من أمراضهم، وكانوا يأتون ليشكروا العم آلفارو على كرمه فيرد بتواضع : أشكروا القديسة أو ، لا أنا . أعتقد أنه كان يعتبر نفسه رجلاً محسناً.

هناك شيء ما يحيرني إلى اليوم . هل كان الماء الذي يملأ أواني العم آلفارو يأتي من سرجيب فعلاً أم من السفينة ؟

ليس هذا مهماً . فليأت الماء من العين . من السفينة . أو من حنفية المطبخ مادام يخلق المعجزات . كان فعّالاً . وكان يأتيني ببعض النقود . وكان عمي يؤدي أجوراً جيدة للعاملين معه .

عندما هربت من مدرسة اليسوعيين جاء العم آلفارو ليبحث عني، وكنت أنتظر أن ينهار العالم فوق رأسي . لم أسمع من العم آلفارو نقداً ولا اتهاماً . كنت أرى في ابتسامته نوعاً من التضامن والتقدير حتى .

Twitter: @ketab_n

13

في الأيام الأولى، ونظراً للعدد الهائل للأفاعي السامة من كل صنف ونوع، كانت البيوت تشيد في الغالب فوق حظائر الخنازير أو بالقرب منها . إذ من المعروف أن طبقة الشحم التي تغطي لحم الخنزير تحميه من سم الأفاعي عندما يمضغها مضغاً ثم يبتلعها . ومع ذلك كان ثمة أشخاص يربون ثعابين أكثر ضراوة من القط في فتكه بالفئران .

تطورت المزارع فنمت القرى فتحولت البيوت البسيطة المشيدة بشكل عشوائي إلى بيوت أنيقة، وأصبحت تشبه مطاحن السكر في ريكونكافو والمنازل الكبرى في سيرتاو. وتنافست في التوفر على وسائل الرفاهية . كانت تحيط بها الفيراندات وتتعالى وسط أرض تحظى بالعناية الشديدة والمراقبة المستمرة . وكان هناك عدد كبير من الحيوانات الأليفة والكلاب والقطط .

في المساحات المجاورة تناسلت الدواجن والطيور من دجاج وإوز ودجاج فرعوني، وأحياناً بعض طيور الغابة المدجنة . كانت والدتي تربي طيور الجاكو، وهي نوع من الديك الرومي المتوحش الذي يعيش في غابات أمريكا الاستوائية، وطيور الهوكو وهي شبيهة بالجاكو، كما كانت تربي الماعز والغنم والأبقار الحلوب . وكانت بعض المزارع تحفل بحقول الليمون والحامض والأناناس

Twitter: @ketab_n

وكثير من الفواكه الاستوائية الأخرى .

أسرتي كانت تفضل فاكهة الجاكا . كانت الأبقار والحمير تتلذذ بأكلها .

تنمو الرفاهية . ينمو معها اعتزاز الكولونيلات بذواتهم، وتنمو سطوتهم وتكبر رغبتهم في الإعلان عن مجدهم . رأيت آخر صرخة من أجهزة البيانو في المزارع المجاورة وتساءلت كيف يمكن نقل هذه الآلة إلى هنا؟ أما والدي فقد اكتفى بجهاز غراموفون انبهر برؤيته العمال والفلاحون .

أمام بيت السيد ، في مزرعة جوزي نيكي، أزهرت الممرات بالورود والقرنفل . ذوق رائع !

كان جوزي نيكي مضرب الأمثال في الأناقة والذوق الرفيع في هندامه وسلوكه . كان لونه أسود فاحماً . وكان مغامراً يقبل على إصلاح الأراضي الوعرة . يرتدي ثياباً في غاية الشياكة .

وجه آخر من الوجوه التي طبعت صباي .

ومن الأشياء التي كانت تذهلني النقوش الفرنسية التي نشرها بائع عربي متنقل في مزارع الكاكاو . كانت تمثل مشاهد طبيعية من أوروبا . قرى متحضرة مليئة بالقصور والطواحين والأعشاب والزهور والرعاة والراعيات . . أي نقيض الأراضي البدائية المسكونة بالأفاعي وشتى أنواع الحُمّى ، حديثة العهد بالإنسان وبالكاكاو . أما صورة راعية الإوز فقد همتُ بها ولا أزال أراها مرتسمة على الخلفية الزرقاء للوحة . يتلاعب الريح بشعرها و تضيع نظرتها في الأفق البعيد .

Twitter: @ketab_n

14

حل رجال الشرطة العسكرية بإيليوس تحت قيادة كولونيل يتمتع بصيت في العنف والوحشية . استطاع بعنفه ووحشيته أن يقر السلم في السيرتاو .

جاء و معه أمر واضح ودقيق يتمثل في القضاء على العصابات المسلحة في مناطق الكاكاو . الواقع أن أسباباً سياسية تختفي خلف قرار الحكومة الأخلاقي . لم يكن الكولونيل وجنوده يريدون سجناء . والأخبار التي راجت عن كتيبة الكولونيل لا تدع مجالاً للشك في سلوكه . لا داعي للاستسلام، ثمة عدالة تسري على الجميع وتنطق بالحكم فوراً .

من بين الخصوم الذي كان الهجوم يهدف إلى القضاء عليهم، جوزي نيكي . خصم عنيد يساند المعارضة . كانت أراضيه تتاخم أراضي والدي . حاصر الجنود أراضي ذاك الزنجي السفيه والعزيز النفس .

علم الطفل، وهو يتتبع باهتمام الأحاديث التي كانت تدور في بيت السيد وفي بيوت العمال، الخطر الذي يتهدد صديقه جوزي نيكي . فهو يحبه . يحب هذا الجار الذي اشتهر بكونه قائداً شرساً لهجمات قاتلة، والذي كلما عاد من سفره إلى باهيا أو ريو (كان يسافر إلى العاصمة على الأقل مرة في السنة لاقتناء

Twitter: @ketab_n

ملابس جديدة) عاد و معه لعبة ثمينة مستوردة لصديقه الطفل . وهكذا عاش الطفل أياماً من التوتر والخوف يتسقط الأخبار . كان العمال يرددون «هل سيتوصل جوزي نيكي إلى الإفلات حياً؟»

ثم علم بالمواجهة قريباً من الغابة بين قائد الشرطة العسكرية و رئيس العصابة . صاح العسكري :

« الآن وقعت . »

و أفرغ وابلاً من الرصاص . كان يريد أن يقتله . وفي خضم المواجهة المسلحة اختفى جوزي نيكي وسط الأحراش تاركاً خلفه خيوطاً من الدم . قيل إنه أصيب بثلاث رصاصات وإن أيامه في الحياة أصبحت معدودة . وحوصرت الغابة من كل الجهات للحيلولة دون هربه . أخذ أرجميرو الطفل معه ليرى جنود الحكومة . كانوا كالمساعدين في المزارع مع فرق واحد . . هو ارتداؤهم للبذلات .

مرت الأيام وجوزي نيكي مختبئ في الغابة . عندما تهبط الكواسر سنعرف هل مات الرجل وسنذهب لحمل بقاياه . من السهل التعرف على مكان موته . حيث تكون العقبان فثمة جثته . يقول القائد ويردد معه الجنود . وكان قلب الطفل ينقبض لكنه لم يفقد الأمل قط . فقد أبرم جوزي نيكي صفقة مع الشيطان ، حسب هونوريو . إن له جسداً لا يقهر .

في منتصف الليل استيقظ الطفل على طرقات خفيفة على

Twitter: @ketab_n

الباب . كان جوزي نيكي بثيابه المهلهلة وذقنه النابتة وملامحه الجائعة العطشى كعائد من الموت . تلقى رصاصتين في إحدى ذراعيه، وواحدة مزقت وجهه فانتفخ و تقيح وأصبح مشوهاً تمجه العين. لكنه ابتسم للطفل الذي سارع إلى إحضار كوب من الماء بينما قامت السيدة أولاليا بإحضار القطن واليود والمرهم وثياب نظيفة . أوقدت النار وأعدت له الأكل .

وبعد أن شبع و ارتوى ، بيد مربوطة إلى عنقه ووجه نظيف هذه المرة، رفض جوزي أن يأخذ حصاناً كما رفض أن يرافقه أرجميرو و هونوريو اللذين وضعهما جاره تحت تصرفه . كان من السهل عليه أن يتابع هربه وحيداً ودون مطية . قدم الشكر وانصرف . وحده كان يعرف وجهته . والجنود يحاصرون الغابة وينتظرون هبوط العقبان .

أنهكهم الانتظار .

بعدما يقرب من شهر جاءت أخبار عن جوزي نيكي . فقد وصل إلى ريو دي جانيرو . نجح في الوصول إلى إيليوس أولاً ثم اختفى داخل أحد المراكب التي تبحر نحو الجنوب . وهناك عالجه طبيب المركب . رحب الجميع بالخبر وأقاموا حفلاً امتزجت فيه أنغام الأكورديون بالقيثارة . نُظِّم حفلٌ تنكري وتداول الناس الكؤوس في حي العمال .

كان يوم بهجة واحتفال .

Twitter: @ketab_n

15

بالنسبة للطفل الذي اعتاد على الحرية في الأزقة والحقول والمزارع، وعلى الحيوانات وأشجار الكاكاو وعلى الأحياء الجديدة، كانت المدرسة الداخلية عند اليسوعيين سجناً حقيقياً وكانت محاولة لترويضه وإرغامه على التفكير بأدمغة الآخرين. لم يكن والده يرغب سوى في تعليم ابنه في أحسن المدارس وأشهرها. لم يكن يعلم أنه كان يمارس عنفاً شديداً ومن نوع خاص على ابنه.

سأعاني من هذا الإحساس بالاختناق والإكراه أكثر من مرة في حياتي. كنت أرغب في خدمة القضايا النبيلة والعادلة. الشيء الذي جعلني أقبل مهاماً لا تروقني. مثلاً كنت نائباً فيدرالياً لسنتين. لم أكن قط أتمتع بموهبة البرلماني ولا بالرغبة في عمل من هذا النوع. ولنفس الأسباب، وفي ظروف معينة، وافقت على أفكار ونظريات لم تكن أفكاري ولا نظرياتي. كنت أفكر بأدمغة الآخرين.

في مدرسة اليسوعيين دلني الراهب المارق الأب كابرال على «رحلات غوليفر» وعلى سبل الحرية. فتحت لي الكتب آفاقاً في سجني. وكان مروق الأب كابرال محدوداً جداً. لم يكن مارقاً سوى في ما يتعلق بمناهج تدريس اللغة البرتغالية المستعملة

Twitter: @ketab_n

آنذاك . كان تمرده ذاك إيجابياً . وخصباً . وكان المروق حافزاً بناءً ويفتح آفاقاً جديدة . فقد شاخت الأورثوذوكسية وعفنت الأفكار والرجال .

علّمتني التجارب القاسية الطويلة على مدى السنين أهمية أن تفكر أنت بدماغك . ولكي أفكر أنا وأتصرف حسب ما أراه أنا أديتُ الثمن باهظاً . وأصبحت مستهدفاً من طرف كل الدوريات والأيديولوجيات والأورثوذوكسيات الجذرية . أديتُ الثمن باهظاً ولكنه مع ذلك كان ثمناً بخساً .

Twitter: @ketab_n

16

أليست الأيديولوجيات هي أصل الداء في زماننا ؟

إن الفكر المبدع الخلاق تخنقه النظريات والمفاهيم الدوغمائية، وتقدم الإنسان تعوقه القواعد التي لا تتغير .

أحلم بثورة دون أيديولوجيا . لا يكون فيها قدر الإنسان وحقه في الطعام والعمل والحب والحياة خاضعاً للمفاهيم التي تفرضها أيديولوجية ما . .

إنه حلم مستحيل . أليس كذلك ؟

ليس لدينا حق أكثر استقامة وأكثر ثباتاً من حقنا في الحلم . إنه الحق الوحيد الذي لا يستطيع أي دكتاتور أن يقلص من حجمه أو أن يلغيه .

أنقذني البحر . بحر إيليوس وشاطئ بونتال . أنقذني هدوء الماء وأنقذتني العواصف من حصار المدرسة الداخلية . كان الواعظ الذي نال إعجاب الجميع، الأب لويس جونزار كابرال، أكبر نجم في المدرسة . يأتي أهل باهيا جموعاً ليستمعوا لمواعظه يوم الأحد . كان يلقي دروسه أيضاً في الثانوية الأدبية البرتغالية في الاحتفالات الكبرى . وعندما مرض الأب فاريا، أستاذ اللغة البرتغالية، عوضه الأب كابرال . لم تكن في دروسه رائحة الأورثوذوكسية .

Twitter: @ketab_n

بدل أن تقوم بتحليل «اللوزديات» وهي ملحمة لويس كاموييس، تحكي قصة فتح الهند الشرقية من طرف الرحالة فاسكو دي غاما في نهاية القرن الخامس عشر وبالبحث عن موضوعها الأساسي واستخراج الجمل منها الشيء الذي يجعل القصيدة مجرد نص محشو بالمسائل النحوية ويجعلنا نحن نكره الشاعر. قام الأب كابرال بإلقاء فصول الملحمة إلقاءً جميلاً. كان يتوهج وهو يلقي، وكنا نتمتع ونحن ننصت إليه رغم لكنته الآتية من وراء البحار. كانت الأبيات تشدنا إلى القصيدة، ثم كان يقرأ علينا نثر «غاريث» و «كولاثو» وهما كاتبان برتغاليان من أكبر كتاب الفترة الرومانسية في القرن التاسع عشر. وكان يقرأ علينا فصولاً من تراجيدياً «فراي لويز دو سوزا» ومقاطع من الأساطير. كان وطنياً، لذلك كان يسعى إلى أن يجعلنا نعي مدى عظمة البرتغال وفتوحاته و أدبه القديم. وقد نجح في أكثر من ذلك، لأنه أيقظ حساسيتنا وأخرجنا من سديم النحو البرتغالي الذي لم تكن لقواعده علاقة مع اللغة التي نتحدثها نحن في البرازيل. وجعلنا الرجل نكتشف سحر الأدب وسلطة الكلمات، فأخذت دروس اللغة البرتغالية بعداً آخر.

Twitter: @ketab_n

17

أول موضوع إنشائي كلّفنا بتحريره أستاذنا الجديد في اللغة البرتغالية كان عن البحر، فألهمت البحار المتلاطمة في كامويس كل تلاميذ الفصل . تلك البحار التي لم تخترقها سفينة قط . أعاد الأطفال كتابة أسطورة «داماستور» . ذاك العملاق الذي حاول منع فاسكو دي غاما من قطع «رأس العواصف»، و هو ما يُسمّى اليوم بـ «رأس الرجاء الصالح» . أما أنا فقد ذهب بي سجن الداخلية إلى شواطئ بونتال حيث الحلم والحرية، وكان بحر إيليوس موضوعاً لإنشائي .

أخذ الأب كابرال المواضيع لتصحيحها في غرفته . وعندما عاد بها في الحصة الموالية أعلن أن موهبة حقيقية في الكتابة توجد في الفصل . وطلب منا أن نصغي جيداً لما سيقرأه . كان متأكداً من أن كاتب هذا الموضوع سيكون في المستقبل كاتباً مرموقاً . كال لي المديح دون تحفظ .

كان عمري آنذاك إحدى عشرة سنة .

أصبحت شخصية في الثانوية إلى جانب أبطال كرة القدم والماهرين في الرياضيات وفي الوعظ الديني . وأصبحت من الذين يحصلون على الميداليات . وتم قبولي في نوع من الحلقات الأدبية حيث ينشط تلاميذ أكبر مني سناً . ومع ذلك ظللت

Twitter: @ketab_n

سجيناً. لم يفارقني قط هذا الإحساس طيلة السنتين اللتين قضيتهما في ثانوية اليسوعيين.

ثم حدث تغيير في حياتي. عشت تحت حماية الأب كابرال. وضع مكتبته رهن إشارتي. في البدء قرأت «رحلات غوليفر» ثم الأدب البرتغالي القديم ثم ترجمات للروايات الإنجليزية و الفرنسية. في تلك الفترة عشقت «تشارلز ديكنز» وانتظرت قليلاً لأتعرف على «مارك توين» الكاتب الأمريكي الذي لم يكن ضمن الكتاب المفضلين لدى الأب كابرال.

ويراودني الآن حنين إلى هذا اليسوعي البرتغالي المحبوب. العالم. لا لأنه تنبأ بمستقبلي ككاتب؛ ولكن لأنه جعلني أحب الكتب. جعلني أكتشف عالم الإبداع. ساعدني على تحمل سنتين في النظام الداخلي. جعل سجني أخف و طأة. أقصد سجني الأول.

و في بداية السنة الثالثة هربت. عبرت السيرتاو إلى سيرجيب.

وهكذا بدأت جامعاتي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جورج أمادو

طفل من حقول الكاكاو

أليست الأيديولوجيات هي أصل الداء في زماننا ؟

إن الفكر المبدع الخلاق تخنقه النظريات والمفاهيم الدوغمائية، وتقدم الإنسان تعوقه القواعد التي لا تتغير .

أحلم بثورة دون أيديولوجيا .لا يكون فيها قدر الإنسان وحقه في الطعام والعمل والحب والحياة خاضعاً للمفاهيم التي تفرضها أيديولوجية ما ..

إنه حلم مستحيل. أليس كذلك ؟

ليس لدينا حق أكثر استقامة وأكثر ثباتاً من حقنا في الحلم . إنه الحق الوحيد الذي لا يستطيع أي دكتاتور أن يقلص من حجمه أو أن يلغيه .

تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤ ● ص. ب: ٩٥٠٢٥٢ ، عمّان ١١١٩٥ الأردن